الشعبية والشعوبية

العالم يهجر الاولى ومصيره الى الثانية

Internationalism Versus Nationalism

بقلم نفرلد الحرار

من النكات المتكيات اننا نضطر أحياناً الى تفسير لفظ عربي بلفظ أعجمي مصطلح عليه لمعنى حديث ، نظنا ان الجانب الاوفر من القراء يعرفون احدى اللغات الاوربية المشتركة بذلك الاصطلاح لفظاً ومعنى

فضلت لفظ شعب مرادفاً للفظ Nation لانه يعبر عن أهل وطن واحد يكثر فيهم اختلاف السلالات وامتزاجها ولا سيما في عصرنا حيث لا نجد أمة بقيت محافظة على عصبيتها أو سلم دمها من الامتزاج بدماء سلالات أخرى . والامة في عرفنا الحاضر تحد بحدود جغرافية اكثر مما تحد بحدود سلالية تاريخية (انثولوجية) . وقد لك نستعمل لفظ « شعبي » مرادفاً للفظ National ولفظ شعوبي مرادفاً للفظ International الى ان يقرر المجمع العلمي لفظين آخرين اذا لم يقرّ هذين اللفظين . وبهذا الاصطلاح نتخلص من اللبس في لفظة « أمية » نسبة الى امة ، لان الشائع ان الامية تعني جهل القراءة والكتابة

متن الموضوع

العالم صائر حتماً الى الشعوبية Internationalism أي تآلف الشعوب وتضامنها وتعاملها على قاعدة الخضوع لقوانين عمومية عادلة منصفة . ليس العالم صائراً الى هذا النظام الاجتماعي من تلقاء نفسه بل بحكم العوامل العمرانية والاجتماعية ، ولا باختيازه ولا بارشاد « العقل الاجتماعي » الواعي بل بغريزة اجتماعية غير واعية . هذه العوامل محتمة على المجتمع ان يسير في هذا الطريق بالرغم من العقول الفردية الواعية — عقول الساسة والاداريين والاقتصاديين وجميع أهل السلطات — المقاومة لهذا المصير بكل ما أوتيت من قوة وحيلة . هذه العقول تقاوم مؤتمرة بأمر التقاليد المتحجرة التي تصر على بقاء القديم على قدمه . ولكن بالرغم من جهادها في سبيل الحرص على التقاليد يندفع تيار الغريزة الاجتماعية (غريزة التطور والتجديد الراضخة لاحكام العوامل العمرانية المتجددة) مجتاحاً أنظمة الشعبية وقاذفاً بها الى بحر النظام الشعوبي

نظام الشعبية جعل كل شعب مستقلاً بنفسه مطلق الحرية . وهذان الاستقلال والحرية يفضيان الى احتكاك الشعوب فتتصادمها فتنازع الحدود الجغرافية والاقتصادية . وأما نظام الشعوبية فيحاول

انه يدك هذه الحدود والاستقلالات ويوحّد الامم في شبه أمة واحدة أو في تحالف واحد عام فيما بينها

في هذا المتن الاجمالي نقط قليلة الوضوح . فلا مناص لايضاحها من الشرح والتمثيل بالأمثلة التي يعلمها الجمهور . ولا بدّ ان يكون قد لاح لقارىء السطور لأقة ان يسأل الاسئلة الرئيسية التالية

١ً — ما هي العوامل العمرانية القاضية حتماً بمصير العالم الى الشعوبية ؟

٢ً — ما هي الأدلة على ان العالم مهاجرٌ الشعبية المتنازعة الى الشعوبية المتحالفة ؟

٣ً — لماذا تتحكم التقاليد بالعقول الفردية الواعية وتضطرها الى مقاومة العوامل العمرانية والاجتماعية المسيرة العالم في طريق الشعوبية ؟

٤ً — كيف تتغلب الغريزة الاجتماعية على العقل الفردي الواعي . وبعبارة أوضح : كيف تنهزم تدابير الساسة واضرابهم أمام تيار النظام الشعوبي خائبة المسعى ؟

٥ً — واخيراً كيف يستقيم نظام الشعوبية وبأي شكل يتم ؟

في الشرح التالي الاجوبة عن هذه الاسئلة

كيف استمسكت العرى الشعوبية

لا بدّ من نظرة عامة الى النظم العمرانية المتقادمة العهود لكي نعلم كيف نشأت العوامل الاجتماعية المتنوعة التي تسيّر العالم في طريقه بالرغم من ارادة العقل الاجتماعي وحريته

في العصور السابقة أيام كانت المعرفة سقيمة كانت اسباب تحصيل الرزق بسيطة جداً ، وبالتالي كانت الحياة ساذجة والمعيشة تشقة وانواع الترف قليلة جداً . وكذلك كانت الاقوام أو الأمم محصورة في حدود جغرافية طبيعية . فقد يكون الفاصل بين أمة واخرى سلسلة جبال صعبة المرتقى أو صحراء شاسعة أو بحر خضم . ولذلك كان الاتصال بين الامم ضعيفاً جداً . كانت كل أمة تقتصر في أساليب معيشتها على ما تجود به أرضها من الرزق وما تستطيعه عقولها الساذجة وعضلاتها من اصطناع الادوات والسلح . كانت مستقلة في اقتصادياتها فلم يكن بنقصها نتاج أو متاع موجود عند غيرها لكي تقايض به نتاجاً عندها وهو ليس عند غيرها . ولهذا كان التعامل بين الامم حتى المتجاورة بطيئاً ويسيراً . فندر جداً ان تحتاج الى عهود وقوانين (كالقوانين الدولية) بينها تحفظ السلم . بل بالعكس كان يغلب الغزو بينها بسبب الحاجة قليلاً وبسبب الطمع كثيراً

والعقل البشري الذي برز من صميم الحياة هو انشط ظاهرات الحياة حركة . فما فتىء منذ ظهوره يتفاعل مع حركة الطبيعة المادية ويستنبط منها نواميسها ليستغلها فمنذ استتم العقل وعيه جعل يخترع وكان الاختراع الواحد يمهد السبيل الى اختراعات اخرى ، الى ان بلغت اختراعاته العجب العجاب الذي نراه الآن

مع تقدم العقل في طريق الاختراع كان بفضل اختراعاته انهُ : — ١ً — توافرت أسباب

المعيشة ووسائل تحصيل الرزق وانواع الترف والبذخ الى ان بلغت شأنها الحالي : ٢ً — جعلت الصناعات تتنوع . وبتنوعها صارت تتزوج مختصة بأفراد وفئات ، الامر الذي وسع دائرة المقايضة فالتجارة : ٣ً — تقدمت وسائل الاتصال بين الأمم تقدماً عجيباً جعل الكرة الارضية كأنها « متمركزة » في أي نقطة في سطحها : ٤ً — هذا الاتصال العجيب هدم كل ما كان يعتبر حداً فاصلاً بين الأمم . أصبحت الأمم جميعها كأنها تعيش في اقليم واحد صغير : ٥ً — هذا الاتصال وسّع دائرة التعامل بين الامم على تباعدها الجغرافي بالسرعة العجيبة : ٦ً — هذا التعامل الشامل السريع زاد أسباب تحصيل الرزق واساليب المعيشة وانواع الترف والبذخ أضعاف الأضعاف : ٧ً — هذا التنوع في أساليب المعيشة والترف وفي وسائل تحصيل الرزق ، جعل كل قطر من أقطار المعمورة مختصاً بانتاج أنواع من النتاجين الزراعي والصناعي دون أنواع اخرى : ٨ً — هذا الاختصاص جعل كل شعب محتاجاً حتماً الى مقايضة غيره من الشعوب الاخرى فلم يعد في طوق أية امة اخرى ان تستقل اقتصادياً استقلالاً مطلقاً مهما بذلت من الجهد في ان تنتج كل ما تحتاج اليه بنفسها لنفسها : ٩ً — و اخيراً ان اضطرار كل شعب الى استيراد شيء من نتاج غيره واصدار منتجاته الى غيره زاد حدة التنازع بين الشعوب الى حد شبوب الحروب فتحاً واستعماراً والقارىء يعلم جيداً تفصيلات هذا البند التاسع

أليست هذه البنود التسعة عوامل عمرانية واجتماعية كانت قاضية حتماً ببلوغ المجتمع البشري الى اشتباك العلائق بين اممه كما نرى الآن ؟ وهل كان للعقل البشري حرية في اختيار مصير آخر غير هذا المصير ؟ أليس ان هذا التطور مقتضى غريزة اجتماعية هي من صميم طبيعة الحياة والعقل ؟ واذا كان لا بد للمجتمع البشري ان يسلك هذا الطريق الى هذا المصير فهل يبقى شك بانه مطلق نظام الشعبية رويداً الى نظام الشعوبية ؟

الرد على هجوم نظام الشعوبية

الحقيقة ان النظام الاجتماعي الآن هو نظام شعوبي بحت لا ينقصه الا ان يؤيد السلم فيه النظام الادبي Ethics . النظام شعوبي برغم انوف الشعوب . وانما الشعوب — او بالاحرى قادة الشعوب — ينتفضون ضمن هذا النظام انتفاضاً جنونياً كما تنتفض الاسماك المتزاحمة المحصورة في شبكة ضيقة عليها . ولكن بالرغم من هذا الانتفاض هي مضطرة ان تستسلم لهذا النظام الشعوبي تفادياً لآلام الاصطدام العنيف . واليك الادلة على استسلامها وفيها الاجابة عن السؤال الثاني بكل اختصار

يمكنك ان تقول ان العالم طفق يدخل في نظام الشعوبية منذ نشأت القوانين والمعاهدات الدولية. وكان انه كلما اشتبكت صلات الامم الاقتصادية اشتد احتكاكها بعضها ببعض وحمي وطيس تصادمها فاضطرت الى تلافي آلام الاصطدام بعقد المعاهدات والمحالفات . وكان احترام المعاهدات يتوقف على

توازن قوى المتعاهدات ، حتى اذا اختلَّ هذا التوازن ورجحت قوة على اخرى ضعف ذلك الاحترام الى حد التلاشي لان قوة المجتمع الادبية — وبعبارة اصح — الضمير الاجتماعي ضعيف

وعندنا ادلة تحملنا على الظن ان هذا الضمير الاجتماعي صار الآن اقوى منهُ قبلاً ولو قليلاً . لاننا نرى بعض الدول تحترم اليوم عهودها بعضها تجاه بعض حتى تجاه التي هي اضعف منها تحترمها الى ان يطرأ طارىء يجعل العهود خطراً على حيويتها فعندئذٍ تعدها قصاصة ورق . ولكن ليس احترام العهود هذا كل الدليل على استقواء الضمير الاجتماعي لان هذا الاحترام لا يكون دائماً ناتجاً عن فضيلة تقيه بل يكون احياناً كثيرة لاستدراك عواقب سيئة . وانما هناك ادلة اخرى عديدة على ان الضمير الصالح اخذ ينتعش حتى في وسط شياطين المطامع . ولا مجال في هذا المقال لشرح هذه الادلة . فيكفي هنا ان نوجه نظر القارىء الى المؤتمرات الدولية المتعددة — لا اعني المؤتمرات السياسية ، لان هذه لا تزال تعقد في دار الشيطان — وانما اعني المؤتمرات الاجتماعية المتنوعة التي يقصد بها الاصلاح والتفاهم والتعميم الخ . فمنها (المؤتمرات العلمية المختلفة المواضيع واهمها المؤتمرات الطبية والصحية . والمؤتمرات الاقتصادية العديدة الانواع من انتاجية زراعية وصناعية الخ . والمؤتمرات الاصلاحية — كمؤتمرات المخدرات والمسكرات الخ . والمؤتمرات الفنية العديدة التعرف الى غير ذلك مما لا يستطاع احصاؤه — جميع هذه المؤتمرات تدل على ان الشعوب شعرت بضرورة التفاهم والاشتراك معاً في مهمات الاصلاحات وفي اجتناء ثمراتها . فهي اذاً قوى ادبية تعمل لتطبيق نظام الشعبية والدخول في نظام الشعوبية

ليست هذه المؤتمرات التي سردنا رؤوسها كل الادلة على انتعاش الضمير الاجتماعي الذي يكبح جماح التنازع الاممي ويرشد الى محامد تحالف الشعوب ووئامها وسلامها . فهناك ايضاً جمعيات واتحادات شعوبية (دولية) عديدة متنوعة تنتشر في الممالك المتمدنة انتشاراً دولياً ينتظم فيها فروع من ممالك مختلفة ولا محل لسردها . فهي ترمي الى نفس الغاية التي ترمي اليها المؤتمرات المارُّ ذكرها

اضف الى ما تقدم انتشار الثقافة الحديثة على سطح الكرة الارضية — ثقافة راقية تطبع عقول الامم المختلفة بطابع واحد تقريباً وتسبكها في قوالب متماثلة . فهي اهم عامل من عوامل تفاهم الامم وتخلقها باخلاق متشابهة تسهّل تآلفها وتحالفها وتعاونها . وفيما تقدم كفاية للتدليل على ان العالم داخل الآن في دائرة النظام الشعوبي . فلا موجب للتفصيل الذي لا يؤذن به المجال

تأثير التقاليد المتصلبة

نأتي الآن الى بيان العوامل التي كانت دائماً تقاوم تيار النظام الشعوبي المسوق بحكم الطبيعة الاجتماعية ولا تزال

لم يبق اقل شك عند سواد الناس ان الوسيلة الوحيدة لتلافي الحروب وتأييد السلم العام هي

تأليف حكومة دولية تطرح الدول سلاحها لديها وتخضع لاحكامها وأوامرها . فقد اصبح إمكان تحقيق هذه النظرية بالفعل عقيدة دامة عند كل طبقة من طبقات الامم وكل فئة من فئاتها . فما هو الحائل دون تحقيقها ؟

بتحليل المسألة نصل الى ثالث الاسئلة التي تصدّر بها هذا البحث — نصل الى شيطان التقاليد المتصلّبة التي تعند لقاء كل تطور اجتماعي . فالتقليد العنيد الذي يحاول صد تيار الشعوبية مصدره الغريزة الحيوانية التي لم تزل قوية في الحياة الانسانية — غريزة الأثرة — الأثرة النفسية التي تبتغي التمتع بثمرة عمل الغير . لشأ من هذه الغريزة فرعان : نزعة الى الاستئثار بالمال الذي هو مثار عرق العامل ، ونزعة الى السؤدد والجاه . وكلتا النزعتين متعاونتان متضامنتان . ولا بحر لتفصيل شئونهما . بتحريض هاتين النزعتين كان رؤوس القبائل والامم والشعوب يغزون بعضهم بعضاً . ولما كان المقاتلون يتوانون عن القتال حين يرون ان نصيبهم من الغنائم ضئيل وان النصيب الاوفر ذاهب الى الرؤوس صار هؤلاء يستنزلون فيهم النعرة الدينية ويحرضونهم باسم الدين على الجهاد . والقارىء يعلم جيداً كم من الحروب اثيرت باسم الدين ، ولم تكن الآلهة راضية ، لان الجهاد كان لاشباع شهوات الرؤوس لا لان الآلهة جائعة للغنائم . وكان الله غائباً لانهُ لا ينحاز الى جانب واحد من بنيهِ دون الآخر

اله الوطن

بقيت الحروب تثار باسم الدين والدين براء منها ، حتى العصر المنصرم حين بدأت العامة تفهم مخادعة الرؤوس هذه . فاستنبط السادة من فئة الرؤوس اخيراً الهاً جديداً للبشر وهو « الوطن » وجعلوا يمجدونهُ ويعظمونهُ في نظر العامة حتى صار هؤلاء يرونهُ اعظم من الله (اللهمّ غفرانك) بل اصبح الله ثانويًّا عنده اذ اطلقت ألسنتهم بالقول « الدين لله والوطن للجميع » . وأصبح التعصب للوطن اضعاف ما كان للدين . وارتفعت رايات الوطن وتنكست رايات الاديان وصار الجهاد لأجل الوطن مبرّة والتفاني في الجهاد له مفخرة وشرفاً وجزاؤه اكاليل توضع على قبر « الجندي المجهول » . وفعل « اله الوطن » من فظائع الحروب وويلاتها اضعاف ما فعله « اسم الدين » . والحقيقة الناصعة ان ابليس الرجيم لم ينجح في ما اخترعه لافساد البشرية عشر نجاحه في اختراع « تأليه الوطن » و « عقيدة الوطنية » . بهذا الاختراع الهائل صدّ ابليس تيار « الشعوبية » المتدفق أكثر مما يصد خزان اصوان تيار النيل

ألا تقول ان « اله الوطن » هذا سحر عامة الامم او اسكرهم بخمرة حبه ! ولا يزالون حتى اليوم سكارى لأن شيطانهُ اخترع الرأسمالية الهاً للمفتونين بإدخار الذهب او ما يمثله ، واخترع البروقراطية الهاً للمشغوفين بحب السيادة والجاه . وجعل ارباب الاموال يسكبون الخمرة في كؤوس في ايدي ارباب السؤدد وهؤلاء يديرونها على العوام كلما اوشك هؤلاء ان يستفيقوا من سكرتهم . والى هذه الساعة لا يزال سواد العامة سكارى بخمرة اله الوطن

منذ ظهر اله الوطن جعل يسحق نفوس الناشئة الحديثة بحب الجندية والتغرام بالثوب العسكري والحسام والبندقية، وبالحماسة للنضال وبالنخوة للقتال حتى اذا اوشكت حتى الخمسة ان تهبط استنبط «اله الوطن» طقساً جديداً لعبادته. فلما قاربت حرارة «البتريوتزم» الفرنساوية التي هبت على اوروبا في القرن الماضي — لما قاربت تهبط استنبط اله الوطن الفاشستية والنازية ونحوهما تحل محل البتريوتزم. وكادت الفاشستية تجتاح كل اوروبا. وما هي الا سنة من اصنام الوطن

ولكيلا تفتر النخوة الجهادية او لكي تثار في صدور الاحداث الذين كان يجب ان يتربّوا على المحبة والاخاء الانسانيين اخترع اله الوطن نظام الكشافة شاملاً للجنسين. وهو شر نظام تسمم به نفوس الاحداث لاثارته روح العداء بين الجنسيات الوطنية بالرغم من الدعوى الكاذبة في انه يراد به تربية الشرف النفسي والنشاط القلبي الى غير ذلك من اساليب التربية العسكرية المصطنعة، ووراء هذه الدعوى المزينة تحريض نعرة التعصب للوطن وحض النخوة للقتال لأجله. ووراء هذا التعصب الوطني ابليس يثير العداء بين وطن ووطن ليجعل نار القتال دائمة الاستعار بين الاوطان. وهو يستخدم لهذه الغاية الهي المال والسؤدد

لا ريب ان عقيدة «الوطنية» جاءت اعظم نكبة على الجنس البشري في تاريخه لانها ليست الا تحريضاً على الحروب وعداة السلم العام. لماذا؟ ولأجل من؟ — لاشباع شهوات ذوي الأثرة وذوي السؤدد. ردّت نظام الشعوبية — تآلف الامم وانضمامها الى الوراء شوطاً كبيراً. وكان من اهم نكباتها: اولاً الامعان في التسليح بالرغم من مؤتمرات الدول العقيمة لتخفيض السلاح. لتخوّف الامم بعضها من بعض وايجامها من مكايد بعضها البعض. وثانياً تعليته الحواجز الجمركية في كل مملكة انتقاماً وسوء مظنة. وثالثاً تسييج الممالك بسياج قوانين ضد المهاجرة. ورابعاً اهباط قيمة العملة تنافساً في الاحتيال على اغتيال حقوق الغير. وخامساً اضعاف عصبة الامم سياسيًّا وأدبيًّا — هذه العصبة التي تعد الجرثومة الاولى لنظام الشعوبية

واخيراً ماذا كانت نتائج هذه المكايد؟ — عرقلة النظام الاقتصادي الى حد الجمود. وكان من اهم مظاهر هذه العرقلة ويل، واي ويل، لجانبي الرأسمالية والعمل على السواء. فدولاب العمل سكن وملايين العمال يتضورون جوعاً وصروح الاعمال انهارت. وانهارت معها صروح الثروات التي كانت مرتكزة على عواتق العمال حتى صار كبار المتموّلين يفتحرون هرباً من هذا الويل. هذه كانت آخرة نتائج عقيدة الوطنية التي دسها ابليس في الحياة الانسانية

اتأسف ان المجال لا يتسع للجواب على السؤالين الاخيرين. ولابد ان القارىء يستطيع استنتاج جوابيهما مما تقدم. وربما عدت اليهما في مقال آخر. ولا يخفى ان هذا الموضوع الخطير متشعب الاطراف جدير بكتاب او كتيب لا بمقالة او بمقالتين. فعسى ان يبدو من اهتمام القراء به ما يشجع اي الاكفاء على الخوض فيه